الكتاب الثالث

العلاقات العراقية المصرية
في العصرين
البابلي ـ الآشوري الوسيط والإمبراطوري

المقدمة

حبا الله بلاد الفراتين (سورية والعراق) ومصر العربية بأهم ثلاثة أنهار في المنطقة نمت على ضفافها أزهى وأعرق حضارات ناضجة في التاريخ. وعلى الرغم من أن كلاً من الحضارتين كانت لها خصائصها المميزة إلا أنهما التقيتا مع بعضهما في جملة خصائص عامة في الفن والدين والعلم ومفاهيم اجتماعية، وهذه العناصر جعلت منها أسس القربى في عالم السياسة خلال قرون تالية.

بعد تلك العهود الزاهرة، على أرضنا العربية، تتابعت غزوات الأجنبي، فهذه فارس تسيطر على مناطق واسعة من أرضها وتلك هي روما تستبيح أرجاء منها.

ومع ذلك شاء الله أن يجعل من هذه الأرض مقراً لإشعاع فكري وروحي جديد في العصر الإسلامي، في وقت كانت فيه أوروبه تغط في سبات من الغفلة بعيداً عن المفاهيم العربية السامية، بل عادتها بكل صلافة بدلاً من أن تحترمها.

وفي جانب من العهود الإسلامية الزاهرة أمست أرض الرافدين والنيل رقعة موحَّدة وعلى الرغم من الشتات السياسي الذي عهدته عهود تالية، إلا أن ذلك لم يُباعد مفاهيم العلم والفن بين القطرين، بل وحتى يومنا هذا لا زالت وديان الأنهر الثلاثة نبع عطاء فكري وممهداً لوحدة عربية شاملة.

ومما سبق نفهم أن دراسة مادة العلاقات العراقية المصرية في الفترة موضوع البحث أمر مهم طالما تحدثنا بمادة علمية جيدة عن تاريخ الفكر السياسي القائم آنذاك وما ترتب عليه من علاقات.

ترجع الصلات بين العراق وسورية ومصر إلى عهود موغلة في القدم. فمن يزر متحف القاهرة للفنون القديمة تطالعه خزانات لأختام أسطوانية ومنبسطة عراقية عثر عليها المختصون في مصر كانت قد أتت إليها عبر التبادل التجاري بينهما. وإضافة إلى ذلك قطع النحت التي تعود إلى نفس العهد، أي منذ فترة الوركاء قبل نحو ٥٢٠٠ سنة مضت. ومن يتتبع التاريخ يجد أن عهداً لم يمر دون أن يترك طبعاته قائمة على نوع من الصلة بين أرض الفراتين والنيل.

إن دراسة العلاقات القديمة لقطرين عربيين عملاً من أجل الحقيقة وتطوير العلوم عبر آلاف السنين فهي من الأهمية بمكان لدارسة التراث العلمي والفني بحضارة وديان الأنهر الثلاثة وتنبيه الجيل العربي إلى ماضي صلاته القديمة وأهميتها في وحدة عالمنا العربي.

ومن الواضح الجلي أن تمحيص ماضي الوطن العربي بغية اختيار العناصر الباعثة على نهوض الأمة، لهو المنهج القويم لردع المناهج المثبّطة التي تقيمها عناصر العداء لها، وما خلق المستعمرة اليهودية الرجعية إلا لتكون الأساس الفاعل والبديل للأعداء التقليديين للأمة العربية. ومن هنا جاءت خطورة المنهج التاريخي والحاجة المستمرة في تقويمه لبناء عالم أفضل.

الفصل الأول

الوضع السياسي العام في الشرق العربي القديم

امتاز العصر العاربي (كبديل عن المصطلح السامي غير المبرر) البابلي القديم (٤٠٠٠- ٣٥٠٠ سنة مضت) بظهور وتطور عناصر حضارية مهمة إلى جانب ما حققته من وحدة سياسية زمن بعض قادتها وفي مقدمتهم عاهل بابل العظيم حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م) سادس ملوك سلالة بابل الأولى. أما في مصر فقد حكمت السلالة الوسطى في فترة توازي العصر البابلي القديم[١]. بعد هذه الفترة حلّ العصر البابلي الوسيط في وسط وجنوب العراق في حين حكم الآشوريون شمالي العراق خلال تلك الفترة. أما في مصر فقد تلا عصر الأسرات الوسطى نفوذ الهكسوس الذين أتوا عبر سيناء[٢].

وبعد مكوثهم فترة بمصر قام" طوطمس الثالث" بابعادهم عن مصر، ومنذ ذلك الحين بدأ عصرها الإمبراطوري (١٥٠٠- ١٠٨٥ ق.م) وهو العصر الذي بدأت فيه الصلات الدبلوماسية الفعلية مع بابل وآشور وسورية وبلاد الأناضول. أما في شمال سورية وأجزاء من بلاد الأناضول فقد حكمت مملكة سميت" ميتاني"[٣]. التي كانت ذات صلة قوية بمصر خلال الفترة المذكورة، في حين كان يحكم لبنان وفلسطين حكام كان بعضهم تابعاً للنفوذ المصري.

من الدول المهمة التي لعبت دوراً في العلاقات الشرقية الحثّيون[٤] الذين سكنوا آسيا الصغرى وأسسوا دولة قوية فيها لغاية القرن الحادي عشر ق.م.، وقد زاد في معلوماتنا عن العلاقات مكتشفات عاصمتهم" بوغاز كوي" (حتوشاش قديماً).

أما في العراق فإن أهم مملكتين سيطرتا عليه: الكاشيون في الوسط والجنوب والآشوريون في الشمال، كما مرّ سابقاً. وقد كان من الطبيعي أن تنشأ علاقات سلام وحرب وادعاء تفوق بين المملكتين.

مما تشير إليه المصادر أن أقدم الصلات بين الشمال والجنوب خلال الفترة موضوع البحث، بدأت منذ عهد الملك الآشوري" بوزور آشوري"(١٥٢١- ١٤٩٨ ق.م) مع الملك البابلي" بورنابورياش" الأول اللذين أقسما يميناً وعينا بينهما حدوداً ثابتة[٥].

على أي حال إن متاعب الآشوريين لم تقتصر على سياسة الجنوب أحياناً فقد واجهت أجزاء منها سطوة " الميتانيين"، ولكن سرعان ما دبّت بوادر الاستقلال عنها منذ عهد "آشور بيل نشيشو"(١٤٤١- ١٤١٤ ق.م) الذي كان من أعماله عقد معاهدة مع ملك بابل "كريناش"، وهو أمر يشير إلى أن آشور قد تمتعت بالاستقلال عن الميتانيين" أو على الأقل ضعف السيطرة الميتانية عليها"[٦]. إلاّ أن الأمور سارت بشكل أفضل مع الآشوريين فيما تلا من الأيام.

في عهد الملك "آشور أوبالط" (١٣٦٥- ١٣٣٠ ق.م). رأى الآشوريون أن من مصلحتهم ترسيخ الوحدة الوطنية فقد حصل تزاوج بين البلاطين الآشوري والبابلي ضماناً لذلك.

لم يستمر مشروع السلام بين مملكتي بابل وآشور ففي عهد خليفة "آشور أوبالط" "انليل نيراري"(١٣٢٩- ١٣٢٠ ق.م) تغيَّر مجرى الأحداث إذ حاربه ملك بابل "كوري كالزو الثاني"، ونفهم من المراسلات الدولية مع مصر أن ابن الأخير أبلغ "إخناتون" (امنوفيس الرابع) ملك مصر أن آشور تابعة إليه[٧]. على أي حال كان الأجانب الحثّيون يرون خيراً في سيطرة بابل على آشور بأسلوب خبيث يمكن أن نفهمه من رسائل ملك الحثّيين "حاتو شيلش" إلى كدشمان كوركو ملك بابل[٨].

إن ما نفهمه مما مرَّ أن الشرق العربي كان مجزأ إلى ممالك ينظر بعضها إلى بعض نظرة ريبة وتحفّظ، ولم يكن بمقدورها الحرب مع بعضها أحياناً لتعادل الكفة ولشعورهم بالاكتفاء الذاتي من الناحيتين الاقتصادية والإقليمية. إن هذا الأمر جعلهم

يلتجئون إلى الدبلوماسية ليقنعوا أنفسهم بأنهم أصحاب وجود أكبر مما هم عليه، كل في مملكته. وعلى أي حال لقد تحقق أمر وحدة العالم العربي زمن الإمبراطورية الآشورية العاربية لذا يمكن أن نعد مراسلات الفترة السابقة لها كانت ممهداً لتلك الوحدة التي لم تستمر طويلاً لتدخل الأجنبي الحبشي في شؤون مصر ومن ثم فقد كان ملوك مصر دخلاء أجانب آنذاك.

مصر	بابل	آشور
تحوتمس الثالث	كارينداش الأول	آشور- رابي الأول
١٥٠١ ق.م	١٤٦٠ ق.م	١٤٨٠ ق.م
امنحوتب الثاني		آشو نيراري الثالث
	١٤٤٧ ق.م	١٤٦٠ ق.م
		آشور بل نيشيشي الثاني
		١٤٤٠ ق.م
تحوتمس الرابع	كوريكالزو الثاني	آشور - ريم نيشيشي
١٣٢١ ق.م	١٤١٠ ق.م	١٤٢٠ ق.م
امنحوتب الثالث	كادشمان انليل الأول	آشور - نادن - آخي
١٤١١ ق.م	١٣٩٠ ق.م	١٤٠٠ ق.م
امنحوتب الرابع	بورنابورياش الثاني	آريبا آدد
		١٣٨٠ ق.م
		آشور - أوبالط الأول
		١٣٦٥- ١٣٣٠ ق.م

جدول لحكم ملوك وادي الرافدين ومصر زمن علاقات العمارنة، وقد اشير إلى الملوك المهمين فقط، حسب اقتراح "البررايب" ونقله سليم حسن مع بعض التغيير في الأسماء وإضافة آشور أوبالط (حسب طه باقر، مقدمة،ج/١، ص/٦٩٧) مع ملاحظة الاجتهاد في ترتيب أسماء السلالة الكاشية.